بيروت، في 1 أيلول 2050

سيّدة قلبي

إليكِ جدّتي، أيّتها الغائبة الحاضرة

علّني أودّع خرائط الشرايين...

بقلوبٍ تتعلّق بالوطن، تنساب عربات الأمل لتقلّ حقائب المستقبل، بينما تتراخى أهوال الماضي أمام بياض الرّسائل الهادر كمياه نهر بيروت. أكتب إليكِ جدّتي رسالتي الأخيرة مدركًا قُربي من المنيّة بعدما نهش المرض جسدي الآيل للسّقوط في فوّهةٍ من تراب، فلا مسكّناتٌ تنفع ولا عقارٌ جديدٌ قبلتُ بتناوله كفأر تجاربٍ يؤتي ثماره. صحيحٌ بأنّ القطاع الصّحيّ قد التحق بركب التّطوّر المتسارع ولكنّه عجز عن مجابهة قوانين الطّبيعة ومسارات الحياة ونتوءات الزّمن. لم يفلح العلم الحديث بإيصالنا للخلود فتعثّر بالانتقاء الطّبيعيّ وبمقولة البقاء للأقوى. هنا على أرض هذا الوطن الذي شاخ باتّجاه ماضيه، خارت قواي فرحت أكتب مواجهًا العزلة والغربة في آنٍ واحدٍ.

أمامي ورقةٌ تهطل عليها كلماتي كرذاذ المطر، وعلى الطّرف تلمع جملةٌ بحبرٍ أزرقٍ مذهّبٍ "حي سان جيرمان دي بريه، باريس"، ورسالتان ناصعتان يلتهمان فراغ الغرفة وفراق الأهل، واحدة لأبي في البرازيل وأخرى لأمّي في العراق. ترتجف الأجهزة الإلكترونيّة بجانبي لتتابع حالتي الصّحيّة المتدهورة، وأنا ألعن الهجرة والبعد وظروف الحياة والعمل، التي حرمت عينيّ من أسر صوركم ومنعت ثغري من تقبيل جباهكم الطّاهرة.

لكلٍّ مقامه ورسالته و وداعه الخاصّ، واحترامًا لمخزونك عن تاريخ لبنان كانت الرّسالة الأخيرة الأولى إليك. أسلاكٌ فضيّةٌ وسريرٌ واحدٌ وغرفةٌ بنافذةٍ مشرّعةٍ وخزانةٌ فارغةٌ تربطني بوجهتي الأخيرة، مستشفى "ناي الغابة" في بلدة "بيت مري" الّتي تتوسّط كبد الواجهة الشّرقيّة المطلّة على بيروت. هنا يغنّي نهرها، ذلك السّطر الفضيّ العذب، تاريخ المدينة متفوّقًا بذلك على نهر السّين، فيلتقي تارةً بنهر الموت وأخرى بأطياف الماضي.

لقد غزت التّكنولوجيا مجالات الحياة فتشعّبت كأنّها أكَمَةٌ اختلط فيها الزّهر بالشّوك. بيد أنّ ساسة الوطن، نظيفي الكفوف، أدركوا المخاطر واستفادوا من الفرص المتاحة مستعينين بالخبراء، ثمّ أمسوا وعامّة الشّعب كخيوط الفجر، متى تعاونت ولد النّور. ازدهرت مفاصل البلاد فأينعت تقدّمًا ثمّ تحوّلنا من الاستهلاك إلى الإنتاج فالاكتفاء الذّاتيّ. مخضرمٌ يُسلّمُ دمثًا، ومناضلٌ يُسلّمُ مكافحًا، وقوميٌّ يُسلّمُ وطنيًّا، هكذا تعاقب الحكّام على كراسيهم الّتي استُبدلت بجولاتهم اليوميّة بين الجموع في الأسواق ومراكز العمل ومختلف المؤسّسات دون قيدٍ أو شرط.

يبوح زبد المتوسّط بأسراره للأمواج المتلاطمة على شاطئ بيروت، فتلتقطها الرّياح وتهزّ بها ستائر النّافذة هنا، فاتحةً شهيّتي لأخبركِ عن أحوال المدينة و كيف أنّها هرمت نحو الماضي. عاد الوطن إلى عصره الذّهبيّ، كانت ورشةٌ ضخمةٌ امتدّت لسنوات، عمل من خلالها المؤرّخون والكهول مع ذوي المناصب كي تنجو المدن والقرى من التّصحّر الرّقميّ. استفدنا من التّقدّم العلميّ ولكنّنا في المقلب الآخر حافظنا على قدسيّة المكان. عادت المقاهي الشّعبيّة تزنّر خاصرة بيروت، وتناسخت العمارات العتيقة عبر أسس التّنظيم المدنيّ، واجتاحت الأشجار الشّوارع فغرق وجه المدينة في المساحات الخضراء.

منذ أسبوع، قدّمت استقالتي من جريدة "فينيقيا"، التي خدمت فيها كاتبًا طوال مسيرتي المهنيّة، بعدما تدهورت حالتي الصّحيّة. أستذكر رحلاتي إلى كلّ ركنٍ في الوطن، وتقاريري عن سلسلتيه الجبليّتين اللّتين أصبحتا مركزًا لتوليد الطّاقة الكهربائيّة بفضل الرياح ومصدرًا للحديد الخام الذي أمسى منافسًا شرسًا في الأسواق العالميّة. أيضًا، تحملني الذاكرة لأحكي لكِ عن مصفاةِ نفطٍ ضخمةٍ شمالي البلاد تتكئ على كتف طرابلس، وعن حقول الغاز العملاقة أمام مرفأ النّاقورة المستحدَث، وعن

سهل البقاع وخير الأرض وعطاء التّراب الّذي أوصل زرع لبنان إلى كل أصقاع العالم. يزداد إيماني بما قلتِهِ لي يومًا عن أنّ في الوطن كنوزًا لو فُتحت لأغرقت الأرض بالنّور وغيّرت وجه الحضارة!

خلال الأعوام المنصرمة تمكّن الجيش الوطنيّ من إنتاج صواريخَ بالستيّةً سُمّيت "أرز 1" و"أرز 2"، إضافةً إلى غوّاصاتٍ وسفنٍ و طائراتٍ حربيّةٍ شكّلت أسطولًا عُرف بدرع الوطن، كتبتُ تقاريرَ مفصلةً عمّا جرى وواكبتُ الاكتشافاتِ العلميةَ مِن قلبِ المختبرات في كلّ المحافظات مسلّطًا الضّوء على براعة وقدرة شباب لبنان في إعماره وصونه من أيّ اعتداءٍ خارجيٍّ.

كان يومًا صيفيًّا عندما شُخصّت بذلك المرض، كنتُ أجمع المحّار النّافق على شاطىء صيدا بعدعودتي من غابات الأرز في أعالي القرنة السّوداء. حيث كلّما رفعت محّارًا وجدت تحته سرطانًا أجردَ يحاول لدغي، ولكن سرعان ما تداعى شغفي في القبض عليها، ثمّ فقدت و عيي. و لم أجد نفسي إلّا في مستشفى صيدون، يكتشف الطّبيب سرطاناتٍ منتشرةً في جسدي الهلاميّ، كتلٌ من خلايا دخيلةٍ تتغذّى عليه من دون علمي المسبق أو شعوري بذلك...

آهٍ من السّفر ووعورة الطّريق حتّى وإن كانت مستقيمةً، فإنّها مفخّخةٌ بالذّكرى والآلام، مصلوبةٌ على مذبح النّسيان! إنّ الوطن أصبح جنّةً على هذه الأرض، وجماله لا يضاهيه أيّ مخلوق، ولكنّني أراه جحيمًا مستعرًا من دونكم، ويلتهمني الداء يومًا بعد يوم، أخاف أن يصل الى ذاكرتي فأفقد وجوهكم ثم أخسر بعدها معارك اليقظة. كيف لي أن أتنعّم وحيدًا بسجايا البلاد وقد اغتالتني المعاناة وأحكمت الوحدة قبضتيها على رقبتي، فما عدتُ أطلب سوى اللّقاء ولا أتمنّى غير العناق؟

إنّها الهاجرة، تتسلّل أشعّة الشّمس بحذر كي تقتنص كوب المياه البارد بجانبي، فيحملني الجوّ المشحون بالوداع في الغرفة على وقع الرّنين الرّقميّ إلى بساتين اللّيمون البنفسجيّ في يافا كأنّه دماء شهداء. وطئتُ فلسطين في اليوم الثّاني بعد التّحرير، وزرت كنيسة القيامة والمسجد الأقصى، عبرتُ صفد وعكّا وطبريّا والنّاصرة، وقبّلت تراب بيسان وجنين وطولكرم ونابلس والخليل، وأقمت الصلاة وغنّيت التراتيل في القدس حاملًا سبحتكِ، ثم وقفتُ على الأطلال في غزّة التي زارها يومًا نابليون منحنيًا أمام جمالها، وبحثتُ بأسراري المتالهكة إلى بئر السبع، ودفنت آلامي التّاريخيّة في صحراء النّقب وألقيت سلامي على القاهرة، ثمّ رجعت.

كتبتُ خلال مسيرتي المهنيّة الكثير عن فلسطين، عن مائها وطينها، عن شعرائها ومقاوميها، عن فلّاحيها وتجّارها، عن نسائها وأطفالها وشيوخها والصبية، عن صمودها وشموخها ومقابر الغزاة فيها. لم أستطع يومًا يا جدتي أن أنسلخ عن بلادنا التي قُسّمت على الخريطة بخطوط عريضة، تلك التي قيل بأنّها مجرد ندوبٍ في الجسد العربيّ. زرتُ دمشق وشممت ياسمينها، وكتبت عن آثار تدمر وحلب والحسكة ودير الزور، واستحممتُ برمال اللاذقيّة وأصداف طرطوس. هكذا أمست بلادُنا قلب العالم الجديد بعدما عادت لحقبتها الذهبيّة بينما غرقت مراكب بقيّة العالم بالوحل الرقميّ...

بدأتُ أعتاد على الطاقم الطبيّ هنا، تشرف على حالتي طبيبة بارعة تدعى زلفى، كلّما خضعتُ لجلسة علاج تسكّنني بكلماتها قائلةً بأن كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. ولكنّه ليس كذلك، إنّني أتضاءل يومًا بعد يوم، أشعر بأنّني أتحوّل إلى حشرةٍ غريبةٍ ليس كالّتي أصبح عليها سامسا في رواية المسخ لكافكا، بل كتلك النّاطقة داخل أليس في بلاد العجائب.

يستحضرني الآن لقائي مع رئيس التّحرير في الجريدة قبل سنتين، كنّا في المقهى الشّعبي في الكرنتينا على الضّفة الغربيّة لنهر بيروت، فغرفةٌ واحدةٌ منه كافيةٌ لإغراقنا في دوّامة التّاريخ البيروتيّ. وعلى أنغام صالح عبد الحيّ وعبدو الحامولي وزكريّا أحمد وعبد الوهّاب وأصداء لاعبي الورق وطاولة الزّهر والدّاما مقرونةٍ بقرقعة النّراجيل، تحدّثنا عن عودة الجرائد الورقيّة للحياة اليوميّة، وكيف أنها تربّعت بين أيدي النّاس كأنّها تتكاثر، فضلًا عن ازدهار دور النّشر، وارتفاع مؤشّر بيع الكتب على اختلاف مواضيعها. كان لقاءً امتدّ لساعاتٍ أقنعته فيه بتخصيص هامشٍ في الجريدة يُعنى برسم رؤىً مستقبليّةً حول مصائر الكتاب الورقيّ والأقلام والمحابر.

يمكنكِ يا جدّتي أن تزوري بيروت وتتذوّقي الفتوّة والصّبا، لأنّها لم تكبر بل عادت إلى مجدها، رجع التراموي يجول بين الأبنية، وفتح حرج بيروت أبوابه مُخرجًا ما في جعبته من طفولةٍ وأعياد. هذه المدينة لم تعد تحاكي أسطورة العنقاء، بل أصبحت بحدّ ذاتها أسطورةً جديدةً ستتوارثها الأجيال القادمة على هيئة كائنٍ غرائبيٍّ ساحرٍ. بيروت ليست فقط شارع الحمرا، إنّها أسرار بئر حسن والأشرفيّة وتلّة الخياط والقنطاري، وحكايا برج حمّود ورأس النّبع وزقاق البلاط، وحدائق البربير والباشورة والصّنائع، وهمهمات البسطة وساحة الشّهداء وعائشة بكّار، ومغامرات الأوزاعي ومار مخايل والمزرعة والمنارة والمصيطبة

وصمود الضّاحية. إنّها الصّنوبر والأرز في ساعة الزّمن الرّمليّة، هي السّجّان والرّهينة والجلّاد معًا، وأعقد أحجيةٍ في ذاكرة التّاريخ!

وبين ثنايا أيلول، تظهر سهول القمح الأصفر في القرى كأنّها مناجم ذهبٍ، و تتهادى إلى مسامع الحصى على أرصفة الرّيف مسامراتُ القرويين تحت ضوء القمر، وعند الغسق تمارس البيادر زجلها أمام الطّبيعة، فترقص أشجار السّنديان الدّبكة مقارعةً قدرات الرّجال والنّساء، حينها تغفو الزّنابق في غياهب الأودية كما تنام الغيمة أمام لهيب النّجوم.

خارج النّافذة أستطيع أن ألمح النّوارس تحلّق فوق مياه المدينة، أتمدّد على هذا السّرير المتثائب علّني أنسى لبرهةٍ أوجاعي الظّاهرة والباطنة، أو أحظى بعطف حارس الأحلام القابع تحت أظافر المنيّة، كي أستسلم للنّوم المؤبّد. عزائي الوحيد يا جدتي هو أنّني سأتحرّر من الجسد الماديّ ومن سرعة هذا الزّمن اللّاهث الذي يستحيل مجاراته، وسيتسنّى لي زيارتكِ طيفًا لا جسدًا. أريد منك عندما تقرأين رسالتي أن تغلقي مدامعك وأن تفتحي صندوق الذّكريات في شرايين يديكِ كي تخلّدي قصصكِ عن الوطن في كتابٍ أو ديوانٍ أو خريطةٍ قبل حلول عصرٍ تكنولوجيٍّ آخر يهدّد كينونة الإنسان.

وأخيرًا، قال يومًا نجيب محفوظ : وطن المرء ليس مكان ولادته، ولكنّه المكان الذي تنتهي فيه كل محاولاته للهروب. وأنا هنا انتهت كلّ محاولاتي وأعلنت إفلاسي العاطفيّ وحدادي على وداعٍ يتيمٍ. ففي شهر أيلول تشتعل كلّ البدايات لتمهّد برودة الشتاء، ولكنّه على هذه الورقة يُعبّد ذلك الشّهر الطّريق للسّكون ويشقّها للعتاب الموجع وسخاء الآلام.

بالمناسبة، وصّيت أن أُدفَن في بقعةٍ خضراءَ جنوبيّ الوطن تشرف على نهر اللّيطاني، بانتظار روحكِ جدّتي، لا تحزني فكلّنا سنعبر، كُلٌّ بوسيلته، وشتّان ما بين المكوث الدنيويّ و السّفر السّماويّ.

مع خالص حبّي العميق، حفيدكِ البيروتيّ...

علي حمدان